تعريف بالكتاب

من المؤلفين من يكفى أن تعرف عملا واحـــدا من أعماله لتعرفه بحذافيره ، فلا يزيدك العلم بسائر مؤلفاته بعد ذلك غير زيادة التكرار .

ويصدق هذا على أوساط الكتاب وصغارهم ، ولكنه لا يصدق على المباقرة الأفذاذ من طبقة شكسبير ، وموليير ، وجيتى ، وتولستوى ، وســفوكليز .

ومرجع الفارق فى ذلك بين الكتاب وصغارهم الى سبب يتعلق بهم ، وسبب يتعلق بموضوع كتاباتهم . فان كبار الكتاب ـ بطبيعة عظمتهم الفكرية والنفسية ـ لا ينحصرون فى جانب واحد من جوانب الحياة يدورون فيه ويعودون اليه ولا يخرجون منه ، فلا تتغير لهم صورة يطلع عليها القارىء مهما تتعدد أمامه الصور فى تأليف بعد تأليف ، وفى قصة بعد قصة ، ان كانوا من المؤلفين القصصيين .

والسبب الذى يتعلق بموضوع كتابتهم يرجع الى هذا المرجع بعينه فى طبيعة الصدق للحياة ، فان موضوعاتهم حية تطابق الحياة فى جميع خصائصها . واذا كانوا من المؤلفين القصصيين فكل بطل من أبطالهم هو كائن حى لا يطابق غيره من الأحياء ، كما لا يتطابق فى الوصف الواحد كائنان حيان .

قيل عن أبطال شكسبير ان أبطال المسرحيات تنتهى أدوارهم على المسرح ولكن أبطاله هو تعيش فى العالم الواسع بعد نزول الستار ، لأنها تحيا كما يحيا الناس الذين نعرفهم وتظل لهم حياتهـم وأن غابوا عن أنظارنا فى بعض أوقاتهم . وهملت على الخصوص يتميز فى أخلاد عارفيه

بتلك الشخصية الحية لنا ، شخصيته التاريخية ولو خرجت لنا واضحة مفروزة من بين ظلمات التاريخ .

وقد انعزلت شخصية هملت فى الحياة عن شخصية شكسبير نفسه فى حياته وبعد مماته ، فكلاهما اليوم بمنزلة واحدة من صدق الحياة ، بعد أن توارى المؤلف وبطله عن الأنظار وفارقا حياة الأجساد الى حياة الأوراق والأفكار .

ومن جراء هذا الانعزال بين الشخصيتين أن الناقد المتعجل يوجه النقد الى شكسبير فلا يلبث أن يظهر له خطؤه ، لأن العيب الذى انتقده انما هو عيب هملت وليس بعيب شكسبير .

ونذكر من قبيل هذا الخلط فى النقد أن أديبا هنـــديا عاب على شكسبير أنه يتناقض فى المنظر الواحد ، لأنه يجعل هملت يقول عن العالم الآخر أنه المملكة التى لا يرجع منها من ذهب اليها ، مع أنه كان من قبل هنيهة يخاطب طيف أبيه .

ولكن التناقض هنا انما هو تناقض الطبيعة التى خلق بها هملت فى تردده ووسواسه واستعداده للخلط بين احساسه الباطن وبين أشباح العيان التى تقع عليها عيناه . وقد علقنا على هذا النقد فى كلامنا عن التعريف بشكسبير فقلنا اننا نحن من قراء هملت الشرقيين ولم نشعر قط بهذا التناقض فى شكسبير : « وأذكر أننا كنا نقرأ هملت مع صديقنا المازنى فكنا نتوقف عند هذا التناقض لنعجب من صدقه ودقته فى التعبير عن شخصية بطل الرواية ، اذ كان شكسبير يصور لنا انسانا مخبول الحس مضطرب الارادة يتردد بين الانتقام والاحجام لأنه يشك فى الطيف : هل هو شيطان من الجحيم يغريه بالاثم ؟ أو هو فى الحق طيف أبيه يحضه على الواجب ؟ ... ومن تردده أنه كان يحار فى كونه ويتساءل : أيكون أم لا يكون ؟ ثم يتقلب فى الجواب ويتقلب فى العمل كما يحدث لكل حائر مضطرب العقيدة بين الشك واليقين . ولو أنه ظهر لنا

فى الرواية على غير هذه الصورة لكان هذا هو التناقض الذى يعاب على المؤلف ويوقع القارىء فى صعوبة الفهم لهذه الشخصية التى يجب أن تكون متناقضة ثم لا يرى منها فى المواقف المختلفة الا التوافق والاستقامة على مسلك واحد .. » .

وتحضرنا ـ ونحن نكتب هذه السطور ـ مشاهد المسارح المتعددة التى رأينا عليها أقطاب فن التمثيل يخرجون « شخصية » هملت على المسرح ولا يتفق منهم اثنان على تمثيلية فى مسحة واحـــدة أو على نمط واحد !

لقد شهدنا هذه الشخصية الحية تمثل على المسرح وعلى اللوحة البيضاء ، وشهدناها من اخراج العباقرة الانجليز والفرنسيين والايطاليين واليونان والمصريين ، فلم نر فى تمثيل واحد منهـم انحرافا كبيرا عن طبيعة الشخصية ، ولكنهم كذلك لم يظهروا لنا بمظهر واحد لهملت كما تعرضه الرواية من فصولها الأولى الى ختامها .

وكنا نعود الى أنفسنا فنشعر بأننا لا نشك فى عبقرية الممثلين ، ولا فى عبقرية المخرجين ، ولا فى صدق الشخصية ، ولا فى قدرة المؤلف . فمن أين جاء هذا الاختلاف بين أدوار الممثلين وأنماط المخرجين ؟

ولم نلبث أن شعرنا بسبب هذا الاختلاف كما ينبغى أن يكون ، وعلمنا أن الصدق للحياة هو سببه الطبيعى فى هذا الدور وفى كل دور من قبيله ، لأنه دور يوضع لشخصية حية مطبوعة ، ولا يوضع لشخصية محكية أو مصنوعة ، ولا تتفاعل الحياة مع الناظر اليها على صورة واحدة فى خلائقها وأعمالها ولو التقيت بها مرات فى اليوم الواحد لقاء المقيمين معا فى المسكن الواحد أو الجهة الواحدة ، وتلك هى آية الصدق للحياة عند المقارنة بينها وبين المصنوعات والمحكيات آيتها أنها تقبل الاختلاف البعيد ولكنها تظل ـ مع هذا ـ صحيحة موافقة للأصل الحى الذى تصدر عنه وترجع اليه .

ان التمثال المصبوب لا يمثل على غير صورة واحدة ولو نظرنا اليه
فى اليوم ألف مرة ، ولكن صاحب التمثال قد يصنع له الف تمثال من
النحاس ومن الحجر ومن الخشب ومن الطين ومن كل مادة تصنع منها
التماثيل الفنية ، ونراها جميعا ولا نشك فى صدق الفنانين ولا فى صدق
الحياة ، لأن هذا بعينه هو صدق الفن وصدق الحياة .

والقرص الشمعى يسمعنا النغمة الواحدة كلما دار على صوت
واحد لا يتغير ولا سبيل الى تغييره اذا نحن حاولناه ، ولكن المغنى الذى
ألقى تلك النغمة وسجلها على القرص الشمعى يستطيع أن يعيدها علينا
اليوم غير ما سمعناها بالأمس ولا نتهمه بمناقضة نفسه ولا بمناقضة
فنه ، لأنه حى يوافق سنة الحياة فى طبيعته وفى طبائع سائر الأحياء ..
وقد يأتى ملحن آخر فيصنع تلك النغمة على لحن غير لحنها ولكنه لحن
مطبوع موافق للطبائع وللفنون ، فلا يجوز لنا أن نحكم عليه بالخطأ لأنه
لم يكن حكاية حرفية للمغنى الأول ولا لواضع لحنه ، فان هذا هو معنى
الحياة الذى تخالف به معنى الجمال ، ومعنى الآلة التى تحكى الحياة :
معناها أنها تختلف ثم تختلف ولا تزال صادقة فى كل نمط من أنماط
الخـــلاف .

ونحن نعرض أقوال الناقدين فى الحوار التالى فنحس من خلالها
أثر هـــذا الصدق وهذا الاختلاف فيما يتناولون به شخصية هملت
وشخصيات زملائه وزميلاته أبطال الرواية وبطلاتها ، فانهم ينظرون
اليهم كما عرضتهم فصولها الوسطى فيسمونهم بالوجوه المقنعة ، لأنهم
يخرجون من أقنعتهم الظاهرة بما وراءها من خلائقهم المطبوعة ، فاذا بهم
فى أطوارهم المتتابعة كأنهم قناع يبرز من وراء قناع ، وكلها صـــور حية
صادقة ، اذ كان قناع الطبيعة غير قناع الوجوه المصنوعة ، هو فى كذبه
أحيانا يمثل صورة صادقة وهى صورة الكذاب المطبوع .

يقول الأستاذ كرونبرجر : « ان أقنعة الشخصيات ـ كما يبدو لى ـ
تخلع تدريجا ، ولو أنها فى بعض الأحيان تستبدل بغيرها » .

ويجيبه الأستاذ بريزون سائلا : « هل تظنون أيها السادة أن السبب فى أن شخصية هملت قد بدت محيرة للناس ، أو أنها أصبحت نوعا من أحجية محيرة من الجمال والفلسفة ، لأن بناء المسرحية قد وضع بحيث يصرف كل فرد فيها وقتا كبيرا ليدعى أنه شىء ما ؟ هل ذلك هو السبب فى أن المسرحية تبدو صعبة الفهم ؟ » .

ويوافقه الأستاذ كروننبرجر فيعود الأستاذ بريزون قائلا : « .. ومع ذلك فان كلا منا يلبس الأقنعة فى كل وقت . وأعتقد ـ من ثم ـ ان المسرحية شديدة المطابقة للحياة » .

وتلك هى آية الصدق فيها وآية العبقرية فى تأليفها وتمثيلها ، فانها تختلف على حالات كثيرة وتصدق على كل حالة ، ولو جاءت متكررة ـ طبق الأصل ـ كما يكتب على النسخ المنقولة لخرجت من عداد الكائنات الحية الى عداد المصنوعات والمحكيات .

لقد أخطأ شكسبير كثيرا فى النقل عن التاريخ ، ولكن كان قليل الخطأ جدا فى النقل عن الحياة .

وفى هذه الرواية بعينها تكلم عن جامعة وتنبرج كأنها كانت موجودة على عهد هملت ، وهى لم توجد قبل مفتتح القرن السادس عشر ، وتكلم عن الحرس السويسرى وهو نظام لم يعرف بين أبناء بلاد الشمال ، وذكر اطلاق المدافع وقد كانت مجهولة يومذاك . وقد نفعه خطأ التاريخ عند فريق من النقاد فاستدلوا به على أصالة تأليفه للروايات المنسوبة اليه ، اذ كان المتعلمون من النبلاء الذين قيل انهم ألفوا تلك الروايات باسمه لا يجهلون على ظنهم تلك الوقائع التاريخية ، ولكن أمانته للحياة كانت أنفع له وللعارفين من كل أمانة تاريخية ، لأن أبطاله ـ ولا سيما بطل هذه الرواية ـ قد أصبحوا نماذج للمشرحين والمحللين من علماء الطب والدراسات النفسية ، فكانت شخصية هملت أصلح للبحث الحديث من المرضى الأحياء ، لأن هؤلاء المرضى لم يظفروا بوصف من قلم شاعر

عبقرى يشبتهم للدرس والتـأمل كما أثبت شكسبير شخصية هملت للناظرين والمتأملين ، وقد قابل المشرحون والمحللون بين هذه الشخصية الفنية وبين أمثالها من الشخصيات الحية التى تعانى من علل النفس ما كان يعانيه زميلها الخيالى ، فكان المثال الخيالى هو مرجع التصحيح للأمثلة القائمة بقيد الحياة . وعادت حقيقة تلك الفكاهة التى أرسلها مرجكفسكى حين قال متهكما عن جيتى انه يشبه تمثاله تماما لسكونه ووقاره . فانك لا تخطىء أن تسمع اليوم من بعض المشرحين والمحللين أن هذا المريض يشبه هملت ويظهر عليه التصنع حين يخالف بعض أقواله وأفعاله ، وبهذا يصدق قول القائلين ان الفن الجميل قد يكون أطبع من الطبيعة لأنه طبيعة يزيد عليها الهام الفنان وتمثيل الكلم المفهوم.

عباس محمود العقاد